

مقدمة

درج العرب ، والمصريون منهم ، على معالجة قضاياهم ، مهما كان خطرها ، من خلال الأشكال الأدبية ، كالرواية والقصة والمسرحية ، وما مائل . وهذه الأشكال ، بطبيعتها وسياقاتها ، لا تتحمل نقاشاً علمياً رصيناً ، ولا تتقبل جدالاً فكرياً عميقاً ؛ فلا يرد فيها إلا القليل والبسيط من أفكار متفارقة في أكثر من مكان ، وآراء متباينة في أكثر من موضع ؛ لا يمكن جمعها معاً في مكان واحد ، أو ضمها إلى بعضها في مجال محدد . وعندما ظهرت المقالة (أو المقال) مع نشوء الصحافة ، في مصر والعالم العربي ، منذ أواخر القرن الماضي ، ظلت المقالة ، لفترة طويلة ، تُكتب بأسلوب أدبي إنشائي ، تغلب فيه العبارات اللفظية والصيغيات البلاغية ، فتحول دون اتباع النهج العلمي في التحليل والبيان ؛ ومع الوقت ، تحررت المقالة من هذه القوالب الجامدة ، وبدأت تتجه إلى التعبير المباشر والأسلوب السهل والبيان البرقي (التلغرافي) ، بهذا صارت المقالة عاملاً مؤثراً في التحليل السياسي أو العرض الفكري أو النقد الفني ، لكنها مع ذلك ظلت محدودة بطبيعتها ، مقصورة بظروفها ؛ أقرب ما تكون إلى الإلماح العاجل ، وأدنى ما يمكن إلى الإلماع السريع ، وبهذا لم يعد ثمّ مفر أو مخرج من مناقشة الفكر أو تحليل الآراء في كتب تنسج للنقاش وتنبسط للتحليل .

الكتب تغري الكاتب بأن يتجه إلى الأسلوب المدرسي (الأكاديمي) في العرض والنهج والتحليل والاستنتاج ؛ وهو أسلوب قد لا يستسيغه القارئ العادي فيشيع عنه ولا يقبل عليه ، ومن هنا قامت الحاجة إلى كتابات علمية بأسلوب جديد ، وكتب فكرية بنهج مبسط ، تعرض وتناقش

وتحلل الأفكار الرصينة ، بعيدًا عن المنهج المدرسي (الأكاديمي) ، وبمنأى من الشكل الأدبي ، فظهرت بذلك كتب فكرية ، يكتبها مفكرون ، لايتعملون المنهج المدرسي (الأكاديمي) ، ولا يتصنعون الشكل الأدبي ، وإنما يكونون فيما يفعلون بين بين ، فيعالجون القضايا الفكرية العويصة بأسلوب علمي ، ولكنه سهل ميسور .

ولأسباب مختلفة ، فقد ظلت ساحة الفكر العربي مفتقدة إلى هذا النوع من الكتابة وهذا النهج من المعالجة ، وبقيت السيادة للأشكال الأدبية أو للمقالة الصحفية ؛ مع أن ظروف الواقع العربي تلح على ضرورة وجود فكر عربي ومفكرين عرب ، يعالجون قضاياهم ، من خلال كتب فكرية ، ولا يقصرون جهدهم على الشكل الأدبي وحده ، أو المقال الصحفي دون سواه .

وكانت الحاجة أكثر إلحاحًا في مجال الفكر السياسي ؛ خاصة مع انتشار الأيدولوجية السياسية عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية ، ونتيجة للمسألة الفلسطينية وتداعياتها على الساحة العربية ، وأثرًا لتنامي العمل السياسي العالمي ، وازدياد أهميته ، ونفاذه إلى الشؤون الخاصة في كل أنحاء العالم ، ومنه العالم العربي . ومع قيام المقالات الصحفية بدور فعال في ذلك فإنها لم تعد كافية ، خاصة وأن كثيرًا منها صار أدنى ما يكون إلى المقال الإخباري ؛ يسرد الأحداث المتتالية في موضوع بعينه ، دون أن يواكب السرد إبداء رأى واضح ، أو بيان رؤية خاصة ، أو تحليل واقع الأحداث ، أو تحليل ما وراء الأخبار .

وحتى إذا ما أبدى كاتب رؤية معينة له في حدث بذاته فإن الرؤية ، وكذلك الرأى ، قد لا يتسم بالموضوعية أو يتصف بالحياد ؛ ذلك أن لبعض الكتاب توجهات معينة أو خصومات خاصة أو صلات شخصية ، تؤثر

على حيادهم أو تفقدتهم الموضوعية ، حين يؤيدون سياسياً معيناً أو يحدون سياسة محددة ، مهما كان الخطأ الواضح فى هذه السياسة والمآخذ الشديدة على ذلك السياسى ؛ ثم إذا بهم يعارضون سياسياً آخر أو يناوئون سياسة مغايرة ، مهما كان فى السياسة من صواب وكان لدى السياسى من إقناع .

وقد لجأ بعض الكتاب والصحفيين إلى اتباع أسلوب آخر فى سرد الأحداث التاريخية ، بعيداً عن عمل المؤرخ الحقيقى ، ويمتأى من الفكر السياسى العام . ذلك أنهم يلجئون إلى الوثائق السياسية التى تفرج عنها بعض الدول ، وخاصة بريطانيا والولايات المتحدة ، بعد فترة تتراوح من ثلاثين إلى خمسين عاماً منذ وقت تحريرها ، ثم يعرضون هذه الوثائق مع تحليلات شخصية أو ذكريات خاصة أو معلومات مستقاة من بعض المصادر . ومع أنه مما لا شك فيه أن نشر هذه الوثائق يحقق فائدة فى جلاء بعض الأحداث التاريخية وبيان ما كان وراءها من خلفيات ، فإن هذا النشر - بما يصاحبه - لا يكفى لتقديم كل الصورة التاريخية ولا يؤدى إلى بيان كل الأسباب التى كانت فى خلفية الأحداث ، وذلك لأسباب عدة (أولاً) فالحكومات لانفرج عن كل الوثائق التى لديها ، وإنما تفرج عمّا لاترى خطراً فى نشره ، أو ما يكون مضمونه قد بات معروفاً للكثير ؛ ثم تستبقى الوثائق ذات السرية الشديدة أو التى ترى أن مصلحتها القومية تقتضى احتباسها وعدم الإفراج عنها (ثانياً) والوثائق وحدها - حتى ولو كانت كاملة - لاتكفى لتقديم الواقعة التاريخية ، لأن لهذه الواقعة عناصر أخرى غالباً مالا تثبت فى الأوراق ، ولا تكتب فى الوثائق ؛ إنما تتكشف مع الأيام أو تظهر خلال التاريخ ،

للباحث المدقق الدؤوب أو لمجموعة من المؤرخين يعملون بكد واجتهاد عملاً تكاملياً ، يجمع أعمالهم فى وحدة صحيحة ، أو تراكم هذه الأعمال مع توالى الأجيال حتى ينشأ من التراكم المعرفى فهم صائب (ثالثاً) ولأن من يكتب هذه الوثائق أصلاً ، غالباً مالا يكون محايداً كل الحياد أو موضوعياً تمام الموضوعية ، فيكتبها من وجهة نظره هو ، أو نقلاً عن مصدر غير أمين أو غير دقيق ، هذا فضلاً عن أن نشر الوثائق يخضع هو الآخر لعملية انتقائية توافق وجهة نظر الكاتب ، فإخفاء وثيقة واحدة ، أو بإعادة ترتيب الوثائق ، أو بإضافة تعليق وجيز ، يمكن أن تغير الحقائق تماماً فى فهم القارئ .

لكل أولئك يكون العمل على إيجاد الفكر السياسى ، ونشره فى العقل العربى من خلال أعمال متعددة ، لمفكرين متنوعى الثقافة ومختلفى الاتجاهات ، ضرورة لازمة ، لا يحصى عنها ولا معدى منها ، لوضع أسس التنوير وبذر بذور الثقافة السياسية ، القادرة على الفهم الصحيح والمؤدية إلى النقد السديد ، والتي تساعد على انتهاج السبل القويمة كما تشجع على إبداء النقد الذاتى وقبوله ، من الحكام والمحكومين على حد سواء .

وهذا الكتاب محاولة فى هذا الاتجاه يعالج قضية العرب المصرية فى القرن العشرين ، وربما فى القرن الذى يليه ، ألا وهى « الصراع الحضارى بين العرب وإسرائيل » ، ولا شك أن المعالجة تتأثر بثقافة الكاتب كما تتلون برواه ؛ ومع ذلك فقد بُذل جهد كبير لتكون المعالجة أدنى ماتكون إلى الموضوعية وأقرب مايمكن إلى الحيادة . وهى ، على أى حال ، مناسبة لفتح الأبواب إلى مواضيع كثيرة ، وشق الطرق إلى اتجاهات متعددة ، للبحث والفهم والتقدير .

وقد نشرت أجزاء هذا الكتاب فى مقالات بمجلة « أكتوبر » المصرية
خلال شهور يونيو ويوليو وأغسطس ١٩٩٦ م ، هى فى الأصل فصول
له ، ويكون إعادة نشرها فى كتاب هو الأصل والمهدف ، خاصة وأن قراءة
الفصول متتابعة متكاملة يعطى صورة أوضح ويقدم تفسيراً أدق .
والله الموفق .